

الكتاب الأول

في أصول الدّعوة

obeikandi.com

# تمهيد

## تاريخ

منذ أكثر من عشرين سنة دعنتي الإذاعة المصرية للتحدث على مؤجاتها، وتركت لي اختيار الموضوع، فاخترت الحديث عن أبطال العرب.

ولما نظرتُ في أمرِ العرب قديماً وحديثاً، وجدت أن بطلَ أبطالهم، بل بطل العالم أجمع هو «محمد بن عبد الله» ﷺ، فابتدأت الحديث به، فجاء الفيضُ بالسيرة العاطرة عن أبرز صفات شخصيته العظيمة، ولم أستطع العدول عنه إلى من سبق أو من لحق، فاستمر الحديث فيها يتابع حتى خرجتُ من مصر سفيراً لها إلى كثير من أقطار المسلمين، وانقطع ما بيني وبين الإذاعة، ولم أكنُ قد تناولت إلا بعض نواح لبطل الأبطال.

وقد وجد بعض العلماء أن ما تحدثت به من المديح في صفات الرسول الكريم جدير بالجمع والنشر، فجمعه وطبعه في كتاب سُمي «بطل الأبطال، أو أبرز صفات النبي محمد».

ثم مضت أعوام عُدت بعدها إلى مصر، وعادت هيئة الإذاعة المصرية تفضلت مرة أخرى بالسماح باستئناف أحاديثي بها، فلم أجد أحبَّ إلى نفسي من أن أرجع إلى أبطال العرب، وأن يكون جامعُ فضائلهم، بل فضائل الإنسانية كلّها موضوع الكلام هذه المرة؛ فكانت العناية بدعائم رسالة محمد وآثارها وانتشارها، وما يستطيع تقديمه لعلاج مشكلات العالم على هداها، وفاض الحديث واتسع له الوقت حتى أُرزيت على ثلاثين محاضرة، رأيت أن أجعلها أساساً لهذا الكتاب الذي أرجو أن ينفع الله به في فهم «الرسالة الخالدة» لمحمد بن عبد الله، في عصر الظمّ الروحي، والاضطراب السياسي، والمادية القاسية.

وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في زمن الناس فيه أحوج ما يكونون إلى هدى ينير لهم طرق العيش بسلام بعد أن دمرتهم الحروب والآلام.

فإذا كان هذا الكتاب شُعباً من قَبس هذا الحق ينطلق في دياجي هذا الليل البهيم الذي غمر البشرية، وإذا كان بسطُ مبادئ هذه الدعوة يَهدي إلى طريق وَسَطٍ مستقيم بين هذه المسالك الوعرة

المضلّة التي تتخبط فيها شعوب البشر وتتصادم وتتطاحن لغير غاية واضحة ولا حجة ظاهرة... فإني أرجو أن يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفضله رسوله معيناً على تبسيط مبادئ هذه الدعوة، وبيانها بكيفية ترضي أهل الرأي وتثير طريق العامة.

## شهادة الزمان والتجربة

وإني على ما أنا فيه من تقصير وتفريط لشاهدٌ بالتجربة والنظر، وقد عشت بين الفقراء والأغنياء، محروم الجاه ومتمتعاً به، وخالطت الخاصة والعامة في المشرق والمغرب، وشاهدت آثار دعوات مختلفة، ونظرت في كتب أقوام كثيرة، فلم أر بناءً أقوى على الدهر، ولا أرحبَ لجمع البشرية من ذلك البناء الذي بناه محمد ﷺ!.

حاولت أن تنال منه العرب والعجم، واشتطت به المتفقهون والمؤرخون، والرؤاة وأهل الرأي، ودعاة الفتنة ودعاة السياسة، وتألب عليه الجاحدون والمكابرون وشوهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرناً، فلم يستطيعوا أن يغيروا وعد الله ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]؛ فقضى أمرهم جميعاً وبقي أمر الكتاب قائماً، ولا يزال ذلك البناء على مرّ الأعاصير سليماً متيناً رجباً، من نزله كان آمناً.

## حق من السماء أو من الأرض!

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله كما نعتقد نحن المسلمين، فيكفي أنها من الله لتمتاز على كل دعوة من غير الله... وإن كانت من «محمد»، كما يقول المنكرون لنبوته، فنحن على بينة من أمرنا، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والموعظة الحسنة، ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كدين، بل كنظرية تاريخية أتت بأفكار وشرائع في السياسة والاجتماع والاقتصاد؛ فيسجدونها بصرف النظر عن معنى الدين، أسساً صالحة لنظام عالمي وسطي بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتطاحن عليها الناس الآن، وسيجدونها حتى على فرض أنها من البشر أصلح الدعوات وأرشدّها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء، وسيجدون طرائقها كمبادئها، وسطاً يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع، ويعم السلام بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم.

فما هي دعائم هذه الرسالة؟

وما هو هُدها في الإصلاح والتكافل الاجتماعي؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية؟

وما هي نظرتها لأسباب الاضطراب العالمي؟  
وما هي وسائلها في البحث عن سَنَدٍ رُوحِيٍّ للحضارة؟  
وما هو النظام العالمي الجديد الذي يوافق روحها؟  
وما هو تاريخ انتشارها شرقاً وغرباً، قديماً وحديثاً؟  
ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى في أبواب هذا الكتاب وفصوله.

\* \* \*

## الدَّعَامَتَانِ

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين، ينهض عليهما بناؤها، وتتفرع منهما فروعها، ويصدرُ عنها معتنقها، هما: الإيمان، والإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰئِرِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]؛ ففي هاته الآيات وأمثالها تحديدٌ ووجهة الإسلام، وتلخيص الدعوة المحمدية: عقائدها وعباداتها وشرائعها، وفيها سرُّ بساطتها وقوتها ورَحابتها، وسرعة انتشارها بين أهل الرأي والعامّة من البشر.

\* \* \*

## الإيمان بالله الواحد

### أصل الأصول

الإيمان بالله بارئ الكون وحده لا شريك له، هو أصل الأصول في الأديان السماوية، فهو أصل الرسالة المحمدية. هو النبيوع الذي أفاضه الله من قلب محمد عليه الصلاة والسلام باهدى وحقائق الخير والسلام.

هو الصّدَى العميق لذلك الهاتف الذي ناداه من السماء والأرض:

﴿أَفَرَأَى بِآسِرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَفَرَأَى وَإِنَّكَ الْكَارِمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ١ - ٥]، ﴿بِأَيِّهَا الْمُدْبِرِ ① قُرْ فَأَنْذِرِ ② وَرَبِّكَ فَكَيْفَ ③ وَبِأَيِّهَا فَطَعْنَرِ ④ وَالرَّجْزَ فَاهْجُرِ ⑤ وَلَا تَحْسَبَنَّ نَسْتَكْبِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرِ ⑦﴾ [المدثر: ١ - ٧]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ⑧﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

خرج «محمد» على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده فأنكروها، وأرادوه على العدول عنها وظنوا به الظنون، فقالوا: ساحر وشاعر ومجنون وكذاب، وساموه على ترك دعوته بالمال والمُلْك والجاه، وقاموه واضطهدوه وأدّوه، فما كان قوله هم إلا أن قال: «والله لو وَصَعُوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أتُركَ هذا الأمر ما تركتهُ أو أهلك دونه». فلم يَعِدِلْ بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأمره به ربه، ولا بالدعوة إليه، مُلْك الليل والنهار وما فيها! وكان همّه أن يلتقي الناس على عبادة القدير الذي تنزهت صفاته عن الشريك والمثيل.

### الدين فطري

والناس من أقدم العصور حَيَارَى يجدون في أنفسهم إلهامًا بالفطرة إلى التسليم بقوة قاهرة يستلهمونها ويستمدّون منها العون، ويستقبلون منها الخير والشر، فيدعونها خوفًا وطمعًا، ويتلقونها

بِالْقَرَابِينِ وَالْعِبَادَاتِ، وَيَجِدُونَ فِي الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ الَّتِي اخْتَلَفُوا فِي تَكْيِيفِهَا سَنَدًا وَمَلَادًا مِنْ رَهْبَةِ الْقُوَّةِ الْمَادِيَةِ فِي الْكُونِ، وَسُلُوكِ وَعِزَاءٍ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ قُسْوَةِ الْحَيَاةِ وَالْأَمَاهَا.

شعورٌ فطريٌّ قويٌّ في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة. وليس أبدعَ من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** إلى الله كما وردت في سورة الأنعام:

### البحث عن الله

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُغَوِّرُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

هكذا تدرج عقل إبراهيم في الاهتداء إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرهبة والروعة في النجم والقمر والشمس، ولكن لم يرضِ فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفوها وقيودها وتعدها وخضوعها لسلطان الظلام، فعدل عنها، واتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة، هي قوة الله الذي فطر السموات والأرض وقهرها، ثم اتصل بعقله وحي الله وهدها.

\* \* \*

وقد عبد الناس قوًى كثيرة، إما عبادة أصيلة، وإما لاتخاذ عبادتها زُلْفَى وتقرُّبًا إلى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم.

عبدوا الأشباح والأرواح والجمادات والحيوانات والنجوم والكواكب والماء والنار والبرق والرعد، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مثَّل لها أو مظهر من مظاهرها. بل عبد بعض الناس بعضًا ممن تجلت فيه قوة غير طبيعية، ثم قتلوا من عبدوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنوها فيه.

### قصة إله زنجي

ومن أعجب ما شاهدتُ من عبادة الإنسان للإنسان، أنني جالست قبل نحو أربعين عامًا إلهًا من آلهة الزوج في جبال النوبة بأقصى الجنوب من كردفان<sup>(١)</sup>، فكنا على الأرض تنقيًا ظللاً وارفة لشجرة

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ في جبال النوبة من جنوب كردفان.

من تلك الأشجار الاستوائية الهائلة، وجمع من الشعب رجالاً ونساء عرايا يرقصون ويطربون في حضرة الإله ويسمونهم «الكجور». وهذا الكجور سواء أكان هو الإله أم رمزَه، هو عُرْفًا للمعبود الذي يُرفع إليه الدعاء، وتُقدم له القرابين، وهو القدير على تصريف الأمور الكونية، له كل تقديس، فهم يطعمونه ويهبونه ويتزلفون إليه مُقابِل أن يأتيهم بالمطر لزرعهم وسائمهم، وأن يشير عليهم بالوقت المناسب للصيد أو الحرب، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض.

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إلهًا كاملًا أو كأصنام جاهلية، يعبدونه زُلفَى لمن هو أعظم في نظرهم.

جاءت زوجة «الكجور» ونحن نتحدث بوساطة مترجم فجلست بجواري، ومدت ساقها فأرثني آثار ضرب بها، فقال المترجم: إن بعض العامة ضربوها، وهي تشكو إليك ظانّة أنك الحكومة، فقلت: كيف وهي زوج «الكجور» وهو إلههم المنتصف بالقدرة عندهم؟! فقال: إن القداسة لا تشمل الأسرة، وحقوقه شخصية فقط، وأهله مثل جميع الناس.

فقلت لصاحبي: إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب أعلى الأمثال في الديمقراطية والمساواة.

ومن عجيب أمر القوم أن للكجور حقوقًا يقابلها واجبات، فإذا امتنع عن أداء الواجب قتلوه، فمثلًا: إذا أجدبت الأرض وهلك الزرع سألوه المطر، فإن أبي وتأخر المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء، فإن مرّت السنة وأجدب ما بعدها، ولم يستطيعوا أن يقنعوا كجورهم ليأمر المطر برحمتهم، فإنهم قد ينتظرونه مواسم أخرى ثم يقتلون أو يرحمونه ويقيمون غيره، ممن يعرفون فيه بالوراثة والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق، فيُجلّونه محله.

وأعجب ما في نوادرهم ما روي لي أنهم شكوا أحد الآلهة مرة إلى الحكومة؛ لامتناعه عن الإتيان بالمطر، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى أمر بحبسه، واستمروا هم ينتظرون أيامًا، فإذا بالكجور يطلب من الحاكم أن يطلق سراحه فيأتيهم بالمطر بسرعة، وما إن انطلق من الحبس وسار بالشعب نحو الجبل حتى هطلت الأمطار غزيرة؛ فهم لا يشكّون في قدرته ولا يظنون به العجز، وإنما يظنون به القصد السيئ.

ذلك مثّل من فكر البشر في سذاجته، وفكر البشر حتى في حضارته أحيانًا لا يكون أعلى كثيرًا. فقد عبد العجل والقط والصنم والنار، وبعض البشر، وغير ذلك!.

## التوحيد وهو السبيل إلى الوحدة العالمية أعظم أسس الدعوة المحمدية

وكانت الدعوة المحمدية إلى الوحدةانية غريبة لدى العرب وغيرهم، رغم ما يظهر الآن من بدايتها، واستقامتها. وكانت الحاجة شديدة لداعي التوحيد لِيَسْمُوَ بالعقل الإنساني إلى النظر في الكون والمخلوقات، والتوجه إلى خالقها جميعاً لاستمداد العون واستلهام الرشد.

وإذا تَقَصَّينا سيرة الرسول في مكة، وتأملنا التنزيل في تلك الفترة، رأينا «عمداً» قد وقف قلبه وجهده، ووهب حياته وحياته أنصاره لتمكين هذه الدعامة الأولى وإظهارها، وقد خاصم أعداءه وهادتهم، ونَفَرَ وَرَضِي، واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقوا معه على كلمة سَوَاءٍ، هي عبادة الله لا شريك له ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم يقبل في دعوته إلى الوحدةانية من المشركين وعبدة الأوثان هَوَادَّةٌ أو مساومة، رغم أنه كان يجادل الجميع، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل الكتاب، يقول القرآن ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويقول في النصارى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَهُهُمُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾ [المائدة: ٨٢] ويقول قولاً عامّاً في جدال الجميع ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْ لَهُمُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

## التسامح هو السبيل إلى الوحدة العالمية

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكتابية حدّاً لا يعرفه أهل هذه الملل، حتى في هذا العصر، الذي انتشر فيه اللادينون، ولا يقبل مثله كثيرون من المتدينين في الملل الأخرى، فلا تسع صدورهم له ولا لرحمة الله لغيرهم.

انظر إلى هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

فالهدف الأسمى للرسالة المحمدية هو الإيذان بالله لا شريك له، وفي سبيل التوحيد تسهل كل العقبات، وتتساوى القبائل والشعوب جميعها حتى الأديان، لقوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ إِنْزِيلًا وَاسْمِعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

## دين واحد لأمّة واحدة

فرسول الله في دعوته إلى الإيثار بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مُبتدع، بل قال إنه مكمل للشرائع السابقة، ومعيد للحنيفيّة الفطرية التي هي دين إبراهيم، بل دين نوح وآدم، وإنه لا تبديل لذلك الدين القيم الذي يستند إلى وحدة الله، ويترتب عليه وحدة خلقه ﴿سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَالْقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢]، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُوتُ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَنْ آتَاهُ وَآمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٥٢].

ولم يختلف الرسول ﷺ مع أهل الكتاب إلا حيث كان تنزيه الخالق موضع شك؛ ففي سبيل التوحيد والتنزيه جادل وخاصم، ولم يصلح أو يهادن أحدًا على حساب دعوته هذه؛ لأنها أساس رسالته وغايتها، بل غاية الوجود: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٧] ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ١ - ٣].

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلًا عن سموه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم، كما يظهر من الفصل التالي.

\* \* \*

## آثار التوحيد

بَيَّنَّا أَنَّ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْمَهْدَفُ الْأَسْمَى لِلدَّعْوَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ سَمَّى الْمُؤْمِنَ بِهِ وَحْدَهُ مُسْلِمًا: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِثُوتُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وإذا تصفَّحْنَا آيَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ نَجِدُ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّزْيِيهِ لَا تَخْلُو مِنْهَا سُورَةٌ، بَلْ تَكَادُ لَا تَخْلُو مِنْهَا صَفْحَةٌ مِنَ الْكِتَابِ تَصْرِيحًا أَوْ تَلْمِيحًا.

### التوحيد روح الدين

وِحْكْمَةُ ذَلِكَ وَاضِحَةٌ؛ إِذِ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كُلُّ مَا فِي الدَّعْوَةِ مِنْ صِلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ، وَهُوَ الرِّبَاطُ الَّذِي يَجْمَعُ شَتَاتَهَا وَيُوَثِّقُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا، بَلْ هُوَ فِيهَا بِمَقَامِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ، يَتَحَلَّلُ وَيُتَلَبَّسُ وَيَنْدَثِرُ بِفِرَاقِهَا، وَالشَّرَائِعُ مِنْ غَيْرِ إِيْمَانٍ كَالْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ، تَسْقُطُ بِسُقُوطِ الْقَائِمِينَ عَلَيْهَا وَيَذْهَبُ أَثَرُهَا بِذَهَابِ الظُّرُوفِ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا.

### هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي

لِذَلِكَ كَانَ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْحَدَّ الْفَاصِلَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَيْسَتْ الْعُنَاصِرُ وَالْأَجْنَاسُ حُدُودًا بَيْنَهُمْ، بَلْ لَيْسَ الْإِنْتِسَابُ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ نَفْسَهُ وَعَدَمُ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ حَدًّا؛ إِذْ بَيْنَنَا هَذَا الدِّينَ يَرَعَى كَنِيسَةَ الْمَسِيحِيِّينَ وَبَيْعَةَ الْيَهُودِ إِذَا دَخَلَتْ فِي ذِمَّتِهِ، وَيَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ لِاحْتِرَامِ حُرِيَّةِ عِقَائِدِ الْمُعَاهِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْكِتَابِيَّةِ: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، وَبَيْنَنَا هُوَ يَكْتَفِي مَنْ يُوْمِنُ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِضَرِيَّةٍ قَلِيلَةٍ عَلَى الْقَادِرِينَ مِنَ الذُّكُورِ مُقَابِلِ حِمَايَةِ نَفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدِينِهِمْ وَعُرْفِهِمْ، ضَرِيَّةٌ هِيَ رَمَزٌ لِعَهْدِهِمْ، يَسْتَعِينُ بِهَا الْمَجَاهِدُونَ عَلَى الرِّبَاطِ فِي الثُّغُورِ، وَيَأْمَنُ الْمُعَاهِدُونَ بِهَا عَلَى دِيَارِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ. وَقَدْ رَدَّهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى نَصَارَى حِمَّصٍ حِينَ أَجْلَاهُ الرُّومَ عَنْهَا، وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: إِنَّمَا أَخَذْنَاهَا لِحِمَايَتِكُمْ وَقَدْ عَجَزْنَا عَنْهَا<sup>(١)</sup>.

(١) وعلى رواية أخرى إن الذي ردها هو أمير الجيش أبو عبيدة عامر بن الجراح.

## الإشراك سبب لإهدار كرامة المشرك وشخصيته

نقول بينما الإسلام يعامل المؤمنين بالله على هذا الأساس، إذا به يفرق بينهم وبين المشركين، ويعامل هؤلاء معاملة أخرى فيها عدم اعتراف بكرامتهم، ولو أنه يفني لهم أيضًا بما لهم من عهود ومواثيق مع المسلمين بشرط ألا تصادم حقًا أو تدفع إلى ظلم، كما حصل في حلف النبي لخزاعة وصلاح الحديبية كما سيأتي؛ إذ العداوة معهم دائمة لوجه الله وصلاح البشرية، حتى يكون الدين كله لله.

ومن ناحية أخرى نجد الإسلام يُدخِل الكتابة في الأسرة المحمدية، فَيُبْحِ مُصَاهِرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَيَجْعَلُهُمْ حُؤُولَةً لِلْمُسْلِمِينَ، وهو لا يقبل مثل هذا النَّسَبِ مع المشركين، ويأبى أن يعترف لهم بهذه الميزة ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى تُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ حَتَّى تُؤْمِنَ﴾ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴿[البقرة: ٢٢١].

كل هذه الشدة مع الوثنيين والمشركين ليست تعصّبًا أعمى ولا إفراطًا في العصبية الإسلامية، فلو كانت كذلك لساوت الدعوة في المعاملة بين أهل الأديان الأخرى جميعًا، وقد لقي الإسلام من العنت والأذى من أهل الكتاب كثيرًا، ولكن ذلك لم يُخْرِج الدعوة عن التمييز بينهم وبين المشركين؛ ذلك كله لأن عقيدة التوحيد هي غاية الحياة الإنسانية، وسبيل الإصلاح المنشود، فمتى آمن العبد بأنه أثر للبارئ الأعظم، كان بينه وبين خالقه ما بين الصانع والمصنوع من الصلة، وكان بينه وبين المصنوعات جميعًا ما بين الآثار المتعددة للمُنشئ الواحد، وكان هذا الارتباط المعترف به اعترافًا بإيمان بين الخلق والخالق رباطًا لا ينفصم، يستمر به العمران والإصلاح والخير على وتيرة واحدة مصدرها الإذعان لإرادة واحدة، وكان بذلك وجودنا جميعًا في هذا الكون متصل المبدأ متحد الغاية، ومتى امتلأت النفوس بذلك سهل كل شيء.

فلو تصورنا الناس على إيمان كامل كهذا، يؤدّون ما عليهم وَفَقَ هذا الإيمان، لأمكن أن نتصور أقدّر المخلوقات على الفساد، وهو الإنسان، أصلحها؛ إذ هو حينئذ لا يحتاج لوازع ولا هادٍ إلا من إيمانه، بل لأمكننا أن نتصور هذا العالم ولا حُكْمَ ولا حكومة فيه إلا لوجودان المؤمنين؛ لذلك كان الإيمان بالله لا شريك له الشغل الشاغل لصاحب الدعوة، وكان في الحقيقة سبب نجاحها واستقامتها؛ فإزالة الشُّرك يتبعها هدم مفساده، وإقامة التوحيد يتبعها قيام فضائله.

\* \* \*

## الشرك طارئ على الفطرة وباعث على الظلم والاستبداد

تُقرّر الدعوة المحمدية أن الناس كانوا على الفطرة يعبدون الله وحده، ثم ضلّوا، فإذا عادوا لها استقاموا. وإذا نظرنا في تاريخ أديان البشر وجدنا الشُّرك في الغالب نتيجة لبِدَع أحدثها الناس،

فعدّوا الآلهة ونوعوها، وأقام المبتدعون والمفسدون أنفسهم قُوَّامًا على الآلهة وسَدَنَةً وحرَّاسًا، بل وكلاءً ونُوَّابًا، واتخذوا سلطان هذه الآلهة سلطاناً لهم، ثم تأمر ذُوو الأغراض فتساندوا على تضليل العاقمة، وانتهوا بوضعهم في أسر مجموعة من الحُرَّافات والسَّخافات، وكان الكهنة وأضرابهم من القُوَّام والوكلاء والمرشدين خزانة الأسرار الدينية هم في الواقع الآلهة المتصرِّفون في المجموعات البشرية المأسورة.

فأول أثر يبدو للشرك في تاريخ البشر، هو أن العبودية للصنم انقلبت إلى عبودية للشخص أو الأشخاص القائمين على هذا الصنم، وقامت عهود من الاستبداد دامت في مصر والعراق آلاف السنين، ولم يتخلَّ منها ركن من أركان العالم من فجر التاريخ إلى اليوم، ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال؛ فإن الشُّرك والاستبداد حليفان متلازمان.

أما التوحيد الصحيح فيتبعه الإنصاف ويلازمه كالظل للشواخص؛ لأن الإله الذي دعا إليه الأنبياء ومحمد ﷺ منزه عن الهوى والغرض، لا يريد من خلقه رزقاً ولا طعاماً، وليس له وكلاء ولا نوابٌ ولا وُسطاء، يقول ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو أقرب إليهم من جبل الوريد، هو الرحمن الرحيم، هو الغنيُّ القدير، هو البارئ المصوِّر، هو العفوُّ الغفور، هو المعطيُّ المانع، هو الحكِّم العَدْلُ، هو المنتقم الجبَّار، هو العليم الخبير، هو المسيطر فوق عباده، العزيز الحكيم.

كلُّ هذه الصفات وما معها من تَنزِيهِ عن الشَّبِيهِ والمَثِيْلِ جعل الأُلُوْهِيَّة في وضع يعلو بها عن الاستغلال السيئ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها، أكرمهم عند الله أتقاهم، وأقربهم أبرهم بالعباد، وكما أن الظلم والأثرة ملازمان للشرك، كان الإنصاف والعدل والمساواة ملازمين للتوحيد؛ لذلك كانت غاية الدعوة المحمّدية الإيِّمان بالله وحده، وهو عندها فوق كلِّ شيء، ويقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

### آثار التوحيد في تركية النفس

والإيِّمان الخالص من الشوائب، الصادرُّ من القلب، يتبعه حتماً جميع الفضائل المتعارف عليها؛ لأن المؤمن من يجد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه وحده؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن عمد وقصد، ومتى وجد هذا الإنسان فقد وُجد الإنسان الكامل.

فلو أن مجتمعنا تكوّن من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمة والمحبة؛ إذ من وصايا الإسلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، «الراحمون يرحمهم الرحمن»، و«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»؛ فهو إذاً المجتمع السعيد.

الدعوة المحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابفةً لطبائع الناس عوّلت في الإصلاح على الإيمان والشرع الذي ينظم ما قصدت إليه من إحسان، وجعلت الوازع من يختاره المؤمنون؛ لينفذ ما شرّعت، فضمنت بذلك استقامة الأمور، وهيئات أن تصل البشرية إلى حكومة الوجدان التي توحىها عقيدة التوحيد!.

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتمًا تغلب جميع الفضائل في نفس المؤمن، فهو لا يعيش لنفسه، بل لإخوانه من مخلوقات الله جميعًا، ويكاد يمتحي في النفس المؤمنة الشر بجميع أنواعه، وأول ما ينمو فيها هو الإيثار والفاء والتضحية في سبيل الخير العام.

فالمؤمن لا يكون ظالمًا؛ لأنه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهي العدل؛ ولا يكون غليظًا قاسيًا، وخالفه هو الرحمن الرحيم، ولا يكون كاذبًا ولا مُخادعًا ولا منافقًا؛ لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذي: ﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩) ﴿[غافر: ١٩]، ولا يكون ذليلاً أو جبانًا؛ لأنه يعلم أن ذلك لا يفيدُه ما دام الأمر بيد الله.

وهكذا إذا استرسلنا في تعداد النقائص نجد أنه حيل بينها وبين الموحّد بحجاب الإيمان، ونجد الصفات السامية جميعًا محببة إلى النفس المؤمنة المطمئنة التي دخلت في عباد الله، ودخلت في رحمته حين لبّت نداءه: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (٢٧) ﴿أَرْجِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً﴾ (٢٨) ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ (٢٩) ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٠) ﴿[الفجر: ٢٧ - ٣٠].

هذه النفس المطمئنة بالإيمان تحيا في سعادة لا يتذوقها إلا الموحّدون، ويمكن لأمثالنا من يعيش على هامش الإيمان ويسأل الله الهدى، أن يتصور النفس المؤمنة تكون في الجنة فعلًا في هذه الدنيا؛ لأن السعادة الروحية التي تتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متاع.

\* \* \*

## التوحيد وصلاح الفكر والحياة

هذا الإيمان بالله وحده الذي قلنا إن الفضائل تتبعه حتمًا، وإنه يطهر النفوس من الشر والرذيلة، يسمو كذلك بالعقل البشري؛ فالوثنية والشرك يشعلان الذهن بالمحسوسات، ويحصرانه في نطاق الأباطيل الصادرة عن دعوات السحرة والكهنة وطوائف القائمين على الآلهة المجسّمة، أو على الآلهة المُقسّمة الموزعة السلطات والمنافسة عليها، فتطبع في أذهان الناس صورًا مما هم فيه أو ما يهبطون إليه من الخرافات، بينما يفعل التوحيد والتنزيه عكس ذلك؛ فهو يدعو للتفكير والنظر وتحكيم العقل؛ فالإله

الذي دعا إليه الإسلام يجمع السلطان والفضائل، وهو مع الناس أينما كانوا، لا وسيط له، ولا يتألونه بحسب، فلا بد لهم من التفكير فيه، والاستدلال عليه بآثاره، مما يدعو إلى تعلق العقل بمصنوعاته.

وقد كانت عناية الدعوة المحمدية في هذا بادية في أقوال الرسول ﷺ وأعماله، كما ردّدت آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقل، فاستهزأت بالقلّدين والمكابرين والجاحدين والجامدين بكلمات لا ذعة فارصة، وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يُحْسِنُونَ استخدام مَلَكَاتِهِمْ في النظر في الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وآثارها.

ومن العجيب أن الشّرك الذي صرّته الدعوة المحمدية في جزيرة العرب في أيام الرسول وفي غيرها من بعده، وترتّب على هزيمته ظهورُ الفضائل التي أشرنا إليها ملازمة للإيمان بالله لا شريك له، لم يكن سهلاً هيئاً كما يُظنّ، بل كان شراً مُستطيراً وبلاءً مستأصلاً يقول الله تعالى: ﴿وَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلِقُ اللَّامُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْأَخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٤ - ٧].

### أثر التوحيد في تحرير العقل وسمو الحضارة

فالدعوة المحمدية بانتصارها على الشّرك قد أزلت العقبة الأولى في سبيل السموّ بالنفس البشرية كما بينا، ورفعت الحَجَرَ عن عقول تحجّرت، فانطلقت للنظر والتبصر، وبدت آثار ذلك مُسرّعة، حتى كادت الدعوة المحمدية أن تكون في ذاتها مُعجزة؛ فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد ﷺ في دعوته مقطوع النظر، فلا يُعرف في تاريخ البشر نجاح كالذي لقيه.

ومن المتفق عليه أيضاً أن دعوته كانت غريبة مُنكرة في نظر القوم، وقد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ما تفيضُ به حوادث السنوات العشرين التي قضاها ﷺ وهو يجهّرها بعد أن أخفاها في بادئ أمرها.

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريبة فإن أثرها في النفوس وما ترتب عليه في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة. فالأعراب الذين وأدوا بناتهم، واعتزوا بسفك الدماء والنهب، صاروا الحشع الرُكع الذين يتبعون فضلاً من الله ورضواناً. والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه، صارت الأسرة المُطهّرة، والقبيلة التي كانت لا تعرف حقاً إلا لعصبيتها، ولا ترعى ذمّة إلا لمن هو منها، صار فيها من يرُدُّ إلى نصارى «حمص» أموالهم؛ لأنه عجز عن رعاية ذمتهم. والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون في الحق لومة لائم. ومن الجفّة القساة صار الخليفة

الذي تردُّه امرأة في مَجْمَع الخُلُق، فيقول: «أصابت امرأة وأخطأ عمر!» ويكتب إلى أكبر وُلَايَةِ الفاتحين متهكِّمًا: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!» لأن ابن ذلك الوالي أساء إلى مسيحي في مصر.

### لا يصح الاحتجاج بالواقع السيئ

فإذا قال قائل: وما بال فساد الحال ضاربًا أطنابه على الدنيا اليوم، والمؤمنون مِلءُ الأرض؟.

قلنا: ما قاله الله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وما قاله الرسول: «والله لا يُؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جاره بوائقه».

فهل أَمِنَ أحدٌ من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائق جاره؟ وهل أحبُّ مُسلمٌ لأخيه ما يحبُّ لنفسه؟.

ولا تزال الإنسانية في هذا البلاء، وهذه الحروب، وهذه الفُرْقَة بين الأمم، وبين الطبقات في الأمم، حتى تملأ مبادئ عقيدة التوحيد قلوب الناس.

\* \* \*

## الإحسان

### رديف الإيمان

الآن ننتقل إلى الدّعمة الثانية للإسلام وهي الإحسان، والإحسان في نظري هو العمل الصالح، وقد جاء في الآيات رَدِيفَ الإيمان، بل يكادُ يلازمُه في كل آية.

### تنظيم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها

والشريعة الإسلامية كلها ما هي إلا بيان بالأمر أو النهي أو الإباحة للأمر التي بها يكون العمل صالحًا، وهي فريدة بين الأديان في وضع الأصول والفروع لهذا الإنسان؛ ففي جميع علاقات الإنسان بالله ومخلوقات الله رسمت الشريعة بشيء من التفصيل قواعد الحياة وأساليبها للمسلم، وهذه القواعد منها ما يختص بالعلاقة بين العبد وربّه من صلاة وصوم وحجّ مما يتبع الإيمان وما يقتضيه من عبادات.

وكل ما نحتاج أن نُشير إليه منها في مثل هذه الأحاديث هو أن هذه العبادات - مع تزيينها للنفس وتطهيرها للبدن، مما يعود أثره على المسلم في شخصه - هي كذلك مجموعة تُنظّم تُعين على حُسن العلاقات بين الفرد والجماعة، وتيسر بما فيها من تدريب وتهذيب سبيل التكافل الذي لا بد منه للجماعة الصالحة، بل تُحرّض في كل لحظة على التعاون البشري الذي هو أساس العمران.

وليس أدل على ذلك من الأثر الذي أحدثته هذه العبادات في نفوس قوم من الأعراب وأضرابهم من الأمم المتبدية، كانوا أبعد الناس عن الألفة والتعاون، وأدناهم للأناية والشر.

### أثر سريع لتطبيق نظم الإحسان

ففي بضعة سنين أصبح الجفأة النافرون، وقد عبدوا الله على الكيفية التي سنّها صاحب الدعوة، أهل نظام وتقوى، يركعون ويسجدون لله، ويأتمون برجل منهم، ويؤدون ذلك باطراد في أوقات محدّدة، فتعودوا النظام والطاعة والتكافل، وأصبحوا إخوانًا يسعى بذمتهم أدناهم.

وقد دهش فعلاً أولادُ عمومتهم الذين استمروا على الشرك حين التّقوا بهم في «بدر» فأوهم لأول

مرة في كتاب مرصوصة لا عهد للعرب بها، لا يتنادون بعصبيّة مع أنهم من شتات العرب، بل شتات الأعراب والعبيد والأحرار والبيض والسود، رابطتهم في الله وأخوتهم في الإنسانية.

فالعبادات على الكيفيات المختارة في الإسلام لها بلا شك غير الرابطة التي تقويها بين المخلوق والخالق، آثار عده في نفس الإنسان وحياته وعلاقته بالناس؛ ولذلك كله كانت عناية صاحب الدعوة بتعليمها عظيمة.

وفقهاء المسلمين حين علموا أن الإسلام بُني على خمسة أركان، للعبادات ثلاثة منها، قد أدركوا عظم هذه الأركان الثلاثة: الصلاة، والصوم، والحج في بناء الدين، وقد أفاضوا في فضل العبادات المختلفة، بل في فضل كل صلاة ورُكعة، مما لا حاجة معه لجديد، ومما يعرفه كل مسلم إن لم يكن تفصيلاً فإجمالاً، ولكن أكثر المسلمين مع شديد الأسف لا يعرفون عن دينهم أكثر من ذلك؛ ولهذا أظن أن العناية في هذه الفصول بالنواحي الأخرى للإحسان والعمل الصالح أجدد وأنفع.

\* \* \*

كان الرجل يأتي من أقصى البادية فيجلس إلى سول الله ﷺ، يتلقى دعوته، فيقوم من بين يديه وهو أعلم بها ممن درجوا اليوم في أحضان الإسلام، ونشأوا في بيوت الدين، وليس ذلك لميزات الرسول ﷺ وبركته وتأثير شخصيته فحسب، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا يختلفون عن أبنائهم عرب اليوم، وإنما لأن الدعوة كانت بسيطة مُركزة في مبادئ عامة مفهومة للكافة، سهلة، تُلقى إليهم ليعملوا بها، وليسروا على نهجها، وينسجوا على منوالها، ولا ليتحدثوا عنها ثم يشتغلوا بالقشور إذ ﴿سُوا اللَّهَ فَاَنسَهُمْ اَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] ورضوا بالظاهر ففقدوا اللب والجوهر.

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تلقي الدعوة ونشرها، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ اِذَا رَجَعُوا اِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فالدعوة بسيطة أساسها الإيثار والإحسان، وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا، وهذا العمل الصالح هو مبادئ عامة وعبادات تُلقن كفيئتها في لحظات.

### الرحمة والإخاء أساس الإحسان

أما المبادئ فأصلها جميعاً في الرحمة والإخاء، والرحمة صفة الله، وقد كان المسلمون في أول عهد الدعوة يسمون الله «الرحمن»، حتى قال العامة: إن محمداً يعبد إلهاً اسمه الرحمن، والمسلمون يستفتحون كل عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم، ويحیی بعضهم بعضاً بالسلام والرحمة، فيقولون: «السلام عليكم ورحمة الله».

وآيات الكتاب شاهدة على أنها أحب الصفات إلى صاحب الدعوة ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أُخْتَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٨) وَقُلْ إِنَّا نَذِيرٌ الْمُنِيرُ ﴿ [الحجر: ٨٨ - ٨٩]، ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿ فِيمَا رَحِمْتَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٨) [التوبة: ١٢٨]، والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة «الراحمون يرحمهم الرحمن»، «إزحموا من في الأرض يزحمكم من في السماء».

## أساس العمران

هذه الرحمة التي هي أصل من أصول التشريع في الدعوة المحمدية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٧٧) [الأنبياء: ١٠٧]، هي أساس العمران، وما نُزِعَتْ من قلب إنسان إلا صار خرباً، ولا من قوم إلا كانوا وباءً على الأرض، والتاريخ يحدثنا عن طغيان أقوام نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم؛ فتركوا آثاراً فظيعة من الخراب استمرت بعدهم قرونًا.

فمثلاً موجات المغول مع «جنكيز خان» ومن بعده لا تزال رغم مرور سبعة قرون بادية آثارها للعيان في أواسط آسيا وغيرها، وقد شهدتها بنفسي في الأفغان وإيران والعراق، وستبقى أجيالاً كثيرة.

وجاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نُزِعَتْ الرحمة من صدورهم فعاثوا في الأرض الفساد، ولا تزال آثار الخراب الذي أحدثه بعض هؤلاء القساة من الأعراب مشهودة في شمال إفريقيا، وقد شهدتها كذلك بنفسي بعد مرور مئات من السنين.

فالرحمة أساس العمران، جاء بها موسى وعيسى ومحمد، بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جميعاً، ولم يعظم شأن دولة من الدول إلا والرحمة صفة من صفات القائمين عليها.

\* \* \*

## دفاع لا بد منه عن رحمة الأتراك العثمانيين

وقد يظنُّ بعض الناس بما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض العهود الأخيرة للدولة العثمانية أنها كانت دولة لم تكن صفة الرحمة من مميزاتهما، وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق؛ فالعثمانيون في أيام عزهم ورثوا الرحمة التي نزعها الله من قلوب العرب المتأخرين، فورثوا الدولة، وسادوهم كما سادوا الأوروبيين.

## أمثال شعبية تشهد لهم

وقد سمعت بنفسني حديث هذه الرحمة في «بَسْرَابِيا» من رومانيا على نهر «الدينستر»، وقيل لي إن أمثلة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للمُلْك العثماني لا تزال تُعبّر عن رحمة التركي وعَدْلُه، ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنَزَّع مع الأتراك من الأرض، وقد لَفَتَ نَظْرِي في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان في رِحَلَاتِي المتعددة أمثلةً وأساطيرُ لا تزال تشير إلى ما استقرّ في نفوس هذه الأمم المسيحية من احترام التركيّ المسلم كرحيم عادل.

وفي سنة ١٩١٧، كنت في فيينا، فرُوي لي أن البولونيين مستبشرون بوصول العساكر العثمانية إلى «جاليسيا» مددًا للنمساويين وقتئذ، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن عندهم نُبوء يعتقدونها عن بعض قديسيهم بأن علامة عزهم وظهور دولتهم مرةً أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب.

ومن العجيب أن هذه العساكر - ولو أنها جاءت مددًا لغاصبي بولندا ومقتسميها - فإنه لم يمض سنة على عبورها «الدانوب» حتى استقلت بولندا حقيقةً مرةً أخرى وعادت دولةً مُوحَّدة.

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال في لغات الأمم البلقانية جعلتني أتوسّع في قراءة التاريخ الإسلامي في البلقان، وقد خرجتُ من قراءتي ومُشاهداتي بأن العدل والرحمة الإسلامية هما اللذان مكّنا للعثمانيين في أوروبا.

وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأمم من عيُوبتها وهَمَجِيَّتِها وقسوتها، وعرفت المساواة والإنصاف. ويكفي أن تعلم أن استرقاق الطوائف بأشنع صورة كان نظامًا دوليًا متعاهدًا عليه في أوروبا الوسطى والجنوبية إلى أن قضى عليه العثمانيون.

## آثرهم في زوال عهد الإقطاع من أرض المُلداف والبولونيين

وكانت هناك عهود دولية بين المُلداف والبولونيين والمَجْر لتسليم كل فلاح يرحل من مزرعة سيده من «البويار» إلى أحد هذه الأوطان، وكانت المزارع تُباعُ بها عليها من الحيوانات والفلاحين. جاء العثمانيون إلى أوروبا يحملون بين صدورهم عاطفة الرحمة كما أرادها صاحب الدعوة ﷺ، ولم يكن الأتراك أكثر عدّة ولا عددًا من أمة من الأمم التي سادوها، فوصلوا على رؤوسهم جميعًا إلى فيينا، ثمهدّ لهم الرحمة صعابَ الجبال والبحار والوهاد، كما مهدت للعرب قبلهم إفريقية وآسيا.

## موقف عظيم لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم

وكان للأتراك ملك شديد، هو السلطان سليم، عُرف بالقسوة وذبح كثيرًا من آل بيته، ويلقبه الأتراك أنفُسهم بسليم القاسي، فحَطَّر له أن يوحد دين الدولة ولغتها، فأبى عليه شيخ الإسلام، فامتنع حُرْمَةً لوصايا الإسلام باحترام حقوق المسيحيين والرحمة بهم، وذلك من أثر الرحمة التي أودعها الله قلب صاحب الدعوة وأتباعه، والتي هي ركن الإسلام المتين وصفة الله التي إذا نُزِعَتْ من الصدور دالت الدولة، وعم الخراب، حتى يَسْتَخْلِفَ اللهُ أهل الرحمة.

انظروا إلى العالم اليوم، وقد نُزِعَت الرحمة من الصدور؛ ألم ينقلب الإنسان شراً من الوحش الضارّي؟ ألم يسبق المتحضرون في القسوة جنكيز خان؟ أليست الغارات الجوية على المدنيين أسوأ ما بلغه الناس من التوحش؟ ثم أليست هذه مقدمات الخراب العام؟

## رحمة الحيوان

هذه الرحمة التي أرسل الله محمدًا من أجلها، ليست خاصّة بالإنسان، وليعلم القارئ مكاتبتها من الإسلام، نَقُصُّ بعض أحكام الشريعة في الرفق بالحيوان؛ ليتبين مدى عناية صاحب الدعوة ﷺ ببيت الرحمة في دعوته.

قال ﷺ «بيننا رجل يمشى بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئرًا فنزلَ فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلبٌ يلهث، يأكل الثرى من العطش؛ فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني؛ فنزل البئر فملأ خُفَّهُ ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له». فقالوا يا رسول الله: «وإن لنا في البهائم لأجرًا»؟ فقال: «في كلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ».

وقال أيضًا «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وقد جاء الإسلام بالنهْي عن كثير مما كان يأتيه العرب، وكان من عادة العربي أن يعذب الحيوان كسَقِّ آذان الدواب، وربط الناقة بجوار قبر صاحبها إذا مات لتموت معه، وغير ذلك.

وحرّمت الشريعة رَمِي الطير للتلهي، وعبث الأولاد بالطيور، والتحرّيش بين الحيوانات كما يفعل الإسبانويون مع الثيران، وبعض الأمم بين الديوك والكلاب، ومنعت إِنْقَالَ الحِمْل على الدابة، وأوجبت حُسْنَ رعايتها وسقايتها، وإلا فللقاضي نزْعُها من صاحبها.

## حكايات عن الرحمة

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدو والمتوحشين؛ فقد رُوي أن عَدِيَّ بنَ حاتم، وقد مَلَكَ الإسلامُ قلبه، كان يَفْتُ الخبزَ للنمل، ويقول: إنهن جاراتٌ وهنَّ حق.

ورُوي عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي أنه كان يمشي في طريق يرافقه بعض أصحابه، فعَرَضَ له كلب، فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه وقال: أما علمت أن الطريق مشترك بيننا وبينه...؟!.

وفي الحديث «إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم».

وكتب الفقه تَفِيضُ بأحكام الرِّفق بالحيوان، مما يُشير إلى مقدار ما قصدت إليه الشريعة من الرحمة بمخلوقات الله. فالرحمة من أسس الدعوة المحمدية وأصولها، بل هي المقصودة من إقامة الدولة، وخيرٌ للناس أن يَلْهُوا بغير صلاة وصوم وحج، وخير لهم أن يعيشوا بغير مساجدٍ وبيعٍ وكنائسٍ إذا نُزعت الرحمة من صدورهم؛ فالدين والدولة بلا رحمة ينقلبان إلى خداع وظلم.

فاللهم أنزل الرحمة في الصدور حتى يُضَرَفَ البلاء عن العالم!.

\* \* \*

## الإخاء

نبسط الحديث في هذا الفصل عن الأساس الثاني للإحسان، وهو الإخاء الذي صار دعوة عالمية محبة لدى أهل هذا العصر جميعاً.

كان المُجْتَمَعُ العَرَبِيُّ قد قَسَمْتَهُ العَصَبِيَّاتُ القَبَلِيَّةُ والقِسْوَةُ الفرديَّة، وكان المُجْتَمَعُ الإنساني قد سادته كذلك العصبية والجنسية والفخر بالأنساب حين جَهَرَ الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادقاً بنداؤه الله:

### آية هي دستور الإخاء البشري

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد نادى بالإخاء قسيماً وقريناً للرحمة، وقرر أن بهما تُفْتَحُ العَقْبَةُ، ويسعد الناس ويدخلون الجنة ﴿فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقْبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ (١٢) فَكُ رَبِّةٌ (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَبْسُمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧)﴾ [البلد: ١١ - ١٧].

وآيات الكتاب الكريم، والأحاديث في الترغيب في الإخاء والرحمة مستفيضة.

### تصوير عجيب لموقع البر لدى الله

وفي حديث قُدْسِيٍّ إن الله ﷻ يقول يوم القيامة «يا ابن آدم، مَرَضْتُ فلم تُعْذِنِي! فيقول ابن آدم: يا رب كيف أعوذُكَ، وأنت ربُّ العالمين؟! فيقول الله: أما عَلِمْتَ أن عَبْدِي فلانًا مَرَضَ فلم تُعْذِهْ؟ أما إِنَّكَ لو عُدْتَه لوجدتني عنده! يا ابن آدم، اسْتَطَعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْنِي! فيقول: يا رب كيف أطعمُكَ وأنت ربُّ العالمين؟! فيقول الله: أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فلانًا اسْتَطَعَمَكَ فلم تُطْعِمْهُ؟ أما إِنَّكَ لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم، اسْتَسْقَيْتُكَ فلم تُسْقِنِي! فيقول: كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالمين! فيقول: استسقاكَ عبدي فلانٌ فلم تُسْقِهْ، أما إِنَّكَ لو سَقَيْتَه لوجدت ذلك عندي».

انظر إلى هذا المعنى السامي في هذا الحديث الجليل؛ فإن الله مع عباده في كل لحظة وحالة، وإن البرِّ

بالناس برُّ بالله، وما هو في حاجة لبرِّ، ولكنه لا يَرْضَى إِلَّا أن يكون كأنها البرُّ لذاته، ولذلك لا أظن أن منازعاً يستطيع أن ينازعنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدعوة المحمدية، كما أنها الغاية منها؛ فهي لم تترك سبيلاً من الترغيب والترهيب إِلَّا سلكته لتَنْطَوِيْ النفوس على الإخاء والرحمة، وتَنْفِرَ القلوب من الأثرة والأنانية، انظروا إلى هذه الآية فهي حتى في عبارتها تَصْعَقُ بِهَوْلِهَا غِلَظَ القلوب:

### تهديد شديد لذوي القسوة والبخل

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْيَسِيرِينَ ﴿٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا ﴿٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿١٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٢﴾ وَجِئْنَا بِيَوْمَيْهِمْ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿١٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿١٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِ تَأْفَهُ أَحَدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٧ - ٢٦].

### قدماء العرب وفهم الإخاء والمساواة

كانت الدعوة إلى الإخاء غريبةً كالدعوة إلى التوحيد والدعوة إلى البعث، فأنكرها العرب الذين لا يعتزُّون بغير العصبية، ولا ينزلون للإخاء مع من هم أدنى، كالأرقاء والضعفاء. وكان لا بد من حملهم عليه؛ لأنه أساسي في نجاح الدعوة، ولكن كيف يتم ذلك وهم المستهزون بجماعة «محمد» من المُسْتَضْعَفِينَ والعبيد وقد تَأَخَّوْا في الله مع السادة والأشراف إخاءً جميلاً، حتى حُكِيَ عن المتكبرين أنهم قالوا مثل قول نوح: ﴿مَا نُرَبِّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نُرَبِّكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِنَسَاكَ﴾ [هود: ٢٧].

وقد أكد القرآن هذا المبدأ السامي وسَّعَهُ حتى شَمِلَ أُخُوَّةَ البشر جميعاً، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَدْيِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

### إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب

ولما تَمَكَّنَتْ دعوةُ الإخاء في النفوس، مَنَّ اللهُ بها على المؤمنين كأكبر نعمة فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرةً على المهاجرين والأنصار، ولكنها كانت عامة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

[آل عمران: ٦٤]، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فالدعوة المحمدية قد قامت إذا على رسالة للناس كافة لعبادة الله وحده، وليكون الناس أمة واحدة، والأخوة فيها هي أخوة العقيدة، لا تفرق بين الشعوب والقبائل، والأبيض والأسود والأصفر، ولا الغالب والمغلوب، ولا الأراضي والأوطان، بل تدعو إلى أخوة حدودها البشرية، تحرم الاعتداء، وتدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى في حالة النزاع مع المعتدين وردهم عن عدوانهم بالحرب، فإن فكرة الأخوة البشرية تُتخذ أيضًا نبراسًا يهتدي به المؤمنون في ظلام الحرب، فهم لا يجاربون للفتح، ولا للسلب ولا للقهر وإذلال الناس، وإنما لحرية العقيدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

حتى في حالة الحرب مع الوثنيين، يعتبر الإسلام الأخوة أصلًا في النزاع؛ فالمؤمن الذي يعتقد أن الوثنية هي أسوأ ما يصاب به الإنسان في رُوحه وعقله ومصيره، إنما يريد للوثني أن ينجو مما هو فيه، وما هو مُعَرَّضٌ له من غَضَبِ اللَّهِ، فإذا قَسَا عليه لِيُرُدَّهُ عن كفره، فإنما يريد بذلك رَحْمَتَهُ وهو معترف بأخوته كما قيل:

فَقَسَا لِيُرْدِجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرَحِمُ

وهذا الوثني الذي يحاربه المؤمن متى كان مُعْتَدِيًا، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرد تسليمه لله، ويصبح مساويًا له تمام المساواة؛ فهو إذا لا ينازعه لنكران أخوته، أو لعدم الرغبة في رحمته، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوة<sup>(١)</sup>.

فنستطيع إذا أن نقول: إن الرحمة والإخاء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية، مقصودان لذاتها ولأثرهما، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف والحرب، وإن الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدَّعي بعض الأجانب، ولا كما يظن بعض الحمقى من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر.

(١) وجاء في سورة التوبة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَنَةً. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]، أي أنه إذا استجار بك أحد من هؤلاء المشركين الذي استباحوا أموال المسلمين وأرواحهم فأجره، وأسمعه كلام الله، فإن آمن فخير، وإن رفض الإيثار فاحمه حتى تصل به إلى المكان الذي يأمن فيه على نفسه وارتكبه!

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح أن نسعى إلى الإخاء العام، وأن تكون الرحمة شعارنا وهدينا في كل زمان ومكان.

\* \* \*

## الإخاء معجزة الإسلام

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم في هذا، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تداؤراً وتناكراً وشقاقاً. ولو قلبنا صفحات التاريخ قبل الإسلام، ونظرنا فيها إلى حال الأمم التي دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد، ما بين جبال الهملايا وجبال البرانس، في طول الدنيا شرقاً وغرباً، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوة والتراحم في نفوس مئات الملايين من البشر على مر هذه القرون.

## بقايا الإخاء في العالم الإسلامي

ولا تزال هذه الأخوة التي دعا إليها محمد ﷺ أحسن ما بقي في نفوس مسلمي اليوم، رغم ما هم عليه من بُعد عن روح الإسلام، فهي متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تجلت لابن بطوطة قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

## ذكرى إخاء في ألبانيا

وقد شعرت بها لأول مرة في شبلي في جبال الأرنؤوط بألبانيا؛ فقد دخلت تلك البلاد ولا عهد لي بها، ولا معرفة بأحد من أهلها، وكان طريقي إليها من بحر الأدرياتيك، فنزلت «بكاترو» وذهبت إلى «ستنجه» عاصمة الجبل الأسود وقتئذ، وكان أهل الجبل في حالة حرب مع الدولة العثمانية، وكنت مُتَنَكِّراً بصفة مراسل جريدة إنجليزية، أقصد التطوع مع المدافعين عن «أشقودره» من الترك والألبان، فلَمَحْتُ في المدينة اسماً إسلامياً على دكان، فقدمتُ نفسي إلى صاحبه، وكأنها كُنَّا على موعد! رغم أن حديثنا كان بالإشارة، وما لبث أن جاء لي بَقِيَّة يعرف قليلاً من العربية فتفاهنا، وتولى الرجل بعد ذلك أمري كله حتى وصلت إلى «أشقودره»، وتنقلت في بلاد الأرنؤوط من الشمال إلى الجنوب، يوصي بعضهم بعضاً بي. ولو كنتُ بين أهلي ما وجدت منهم حباً أكثر مما أوجدته لي الأخوة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة، أيام حرب البلقان، بل إنِّي لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لي في كل بلد من يعرف العربية ومن يُلازمي لخدمتي ومعاونتي.

وهذه الروح ذاتها هي التي وجدتها في شمال إفريقيا أثناء الحرب العالمية الأولى، وهي التي لمستها في الهند حينما كان الناس يُحْفون بي ويستبشرون، ولما علموا أن مصر صارت دولة مستقلة، وأنني رسولها إلى الأفغان فرحوا كأنها أيام عزهم قد أقبلت!

هذه الروح الأخوية التي خلقتها الدعوة المحمدية، هي التي شهدتها كذلك في إيران والأفغان وتركيا والعراق والشام والحجاز وغيرها، وفي كل جولة من جولاتي في بلد لا تزال للإسلام أو بقي فيها مسلمون، وهي التي تخرج بها مُعْتَرَا الأفغاني من المشرق أو الفلاتي من أقصى إفريقية الغربية فَيَطُوي آلاف الأميال سَيْرًا إلى مكة متوكلاً؛ لأنه يمشي من أهل إلى أهل، ومن إخوان إلى إخوان، حتى يَرِدَ المكانَ الذي جَهَرَ فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوة العامة.

كنت مرة قاصداً من الرياض عاصمة نجد إلى مكة، وكان بينهما سفرٌ خمسة أيام بالسيارة في ذلك الوقت، وفي اليوم الثاني لآخ لي رجلان يمشيان، فوجهت السائق ناحيتهما، وسألتهما أصلهما وقصدتهما، فلم يفهما لعجمتهما؛ إذ أنها كان من «قندهار» بالأفغان، وكان موسم الحج مُقبلاً! فأدركتُ أنهما يريدان الحجَّ فشَقَّ عَلَيَّ أن أتركهما وحملتهما معي إلى مكة، وفي الليالي التي قضيناها بالطريق، رَغَمَ جهل بعضنا لغة بعض، كانت رُوح الأخوة ناطقة بكل حاسية، ولولا هذه الأخوة لما طَوَى هذان الرجلان الأرض، لا يَمْلِكُان شيئاً من الدنيا إلا أن الدعوة المحمدية قد آخَتَ بينهما وبين البلوش والفرس والعرب ممن تنقلوا في أوطانهم.

نعم، إن هذه الأخوة تَصْعَفُ في أقطار المسلمين بضعف التدين وقيام النعرات الجنسية. وأعظم من ذلك بسيطرة المادة على النفوس؛ فهي تكاد تَقْضِي على الأخوة في البيت والأسرة الواحدة.

### إخاء ليس له نظير

وقد كان أثر الدعوة المحمدية إلى الإخاء والرحمة أعظم ظهوراً في تاريخ المسلمين من أية دعوة مُمَثِّلَةٍ في التاريخ البشري، وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاون، فإن هذه حالة شاذة سببها دوام اضطهاد جماعتهم وتشتتها ووجودها في حالة أقلية؛ لأن ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها الدم، وليس العقيدة التي تدعو إلى الإخاء الإنساني، أما الأخوة التي دعا إليها محمد ﷺ وأقامها الإسلام في النفوس، فكانت أعزُّ أيامها أيام العز السابق، وقد حملها العثمانيون إلى شرق أوروبا، كما حملها العرب من قبل إلى غرب أوروبا ومجاهل إفريقية وآسيا، فكان الناس تحت رايتهن سَوَاسِيَةً كَأَسنان المُشْطِ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله. وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذمّة، هم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلمهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء.

والآن، وهذا العالم المضطرب يأكل قوِيَهُ ضِعْفَهُ، والناس في أنكر صور القسوة يَتَقَادَفُونَ بالهول؛ ليجنوا مغانم وأسلاباً لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة كما كانت، والله الأمر من قبل ومن بعد.